الباب الرابع

نظرية ماكس فيبر
والبحث المضاد فى أصل الرأسمالية المعاصرة

المحتويات

الفصل العاشر : نظرية ماكس فيبر ، السياق الفكرى والواقعى

الفصل الحادى عشر : البناء المنهجى لنظرية ماكس فيبر

الفصل الثالث عشر : النظرية السوسيولوجية لماكس فيبر ، رؤيتها للنظام الرأسمالى وتفاعلاته

تمـهيد

يعتبـر مـاكس فيبر من علمـاء الاجتمـاع الذين قدموا تطويراً حقيقياً لهذا العلم على المستوى النظرى والمنهجى على السواء . الأمر الذى جعل التنظير الفيبرى مـازال مؤثراً حتى الآن ، وله وطأته على أفكار كثير من علماء الاجتماع .

وتكمن عبقرية ماكس فيبر فى أنه قد حاول جمع الخيوط المتناقضة فى نسيج واحد أكثر اكتمالا وقوة . فعلى المستوى المنهجى نجد ان ماكس فيبر قد حاول أن يجمع معاً وجهة النظر التى تؤكد على الادراك الموضوعى للواقعة الاجتماعية ، ومع وجهة النظر التى تؤكد على ضرورة ادراكها ادراكا ذاتيا . أن يجمع معاً الاتجاه الواضعى الذى يرى ادراك الواقعية الاجتماعية من خلال مؤشـراتها الخارجية ، التى تشير الى طبيعتها الأساسية وبين الاتجاه المثالى الذى يرى ضرورة ادراك معنى الواقعة الاجتماعية بالنسبة للانسان المشـارك ، وليس الباحث الذى يقوم بدراسة الظاهرة ومحاولة فهمها وتحليلها . واذا كانت الوضعية قد أكدت على السببية التى تربط الوقائع الاجتماعية ببعضها البعض ، فقد حاول فيبر أن يكمل هذه السببية الخارجية ، بإدراك الواقعة من الداخل ، أى بالتعرف على معناها .

ويتصل بذلك على المستوى العينى ان ماكس فيبر يعتبر هو الباحث السوسيولوجى الذى أكد أن الواقعة الاجتماعية يمكن ان يسببها أكثر من عامل أو متغير واحد . وأن الواقعى تنتمى فى العادة لجمع من المتغيرات .

ولتـأكيد ذلك نجده يذهب الى القـول بأنه اذا كانت الماركسـية قد أكدت على المتـغيرات الاقتصـادية باعتبارها المتغيرات المسئولة عن ظهور الرأسمـالى ، فإنه من الممكن نسبة ظهور الرأسمالية الى مجموعة من القيم الدينية ذات الطبيعة التطهيرية والتى انطلقت من البروتستنتية بالأساس . وعلى هذا النحو فلم يكن هدف فيبر التـأكيد على العالم الدين فى مواجـهة العامل الاقتصـادى عند مـاركس ، بقدر مـاكان هدفه الأسـاسى يتمثل فى التـأكيد على امكانية تعدد المتغيرات المسببة للظاهرة أو الواقعة الاجتماعية .

ومن مظاهر الالتقاء التى صاغها فيبر أيضا بين العناصر المتناقضة هو ذلك التأليف بين الباحث الانسـان فى المجتمع الذى توجه سلوكياته بأخلاق الاعتقـاد ، وبين الانسان السياسى الذى توجهه اخـلاق المسئولية ، واذا كانت النظريات الوضـعية قد أكدت على انفصـال النموذجين عن بعضهـا . فقد أكد فيبر على احتمالية اجتمـاعهما فى انسـان واحد ، السيـاسى العالم الذى يستطيع ان يلعب دور مستشار الأمير ، وهو الدور الذى كان يطمح اليه ماكس فيبر .

كذلك تلمس مظاهر جمع المتناقضات فى كل متكامل من خلال حديث فيبر عن نماذج السلطة ، وكيف يمكن أن تتحول السلطة الكارزمية الى سلطة منظمة ثم سلطة تقليدية ، حيث رأى انه من الممكن أن تشكل هذه الأنماط الثلاثة مراحل متعاقبة لسلطة واحدة . وهو الحر الذى نجده كذلك فى الأفعال والسلوكيات البشرية ، التى يأتيها الفاعل فى السياق الاجتماعى .

ويرتبط بذلك قدرة ماكس فيبر العبقرية فى تحليل الظاهرة الاجتماعية على مستويات متباينة للغاية ، فقد كان باستطاعته أن يمارس التحليل العلمى لأى ظاهرة من لظواهر الاجتماعية على مستوى الخطوط العامة والشاملة ، وفى ذات الوقت كانت لديه امكنية على تحليل أى واقعة اجتماعية على مستوى التفاصيل الجزئية الدقيقة ، مع قدرة فذه على خلق روابط وعلاقات عضوية بين مستويى التحليل .

ولعل هذه القدرة على جمع المتناقضات فى كل واحد ومتكامل ترجع من ناحية الى العبقرية الفذة لماكس فيبر ، وترجع فى ذات الوقت الى ان موقفه الفكرى كان دائماً فى المنطقة الواقعة بين الفلسفة الوضعية والفلسفة المثالية ، حيث كان لديه ميل حاد وثاقب لجمع القضايا التى تنتمى لهذين التيارين والتأليف بينها فى كل واحد ومتكامل ، وهو الأمر الذى نعرض لبعض أبعاده فى الفصول الثلاث التالية .

الفصل العاشر

نظرية ماكس فيبر
السياق الفكرى والواقعى

المحتويات

مقدمة

أولا : ماكس فيبر ، هويته واهتماماته .

ثانيا : ماكس فيبر والحوار مع المثالية والوضعية .

ثالثا : فيبر وماركس ، والبدء بمنطلقات جديدة .

رابعا : فيبر ودوركيم ، نطاق الاختلاف والاتفاق .

خامسا : الواقع الاجتماعى ، أحداثه المؤثرة .

مقدمة

أثرت مكانة ماكس فيبر على خريطة علم الاجتماع على طبيعة القضايا التى اختار معالجتها ، وكذلك على طريقة أو أسلوب المعالجة . فقد بدأ فيبر يحتل مكانته فى ظل اتجاهات نظرية بعضها له طابعه الفلسفى المجرد غير الملتزم بتفاصيل الحياة الواقعية ، بينما اقترب البعض الآخر من الواقع فى محاولة دراسته واعادة تنظيم معطياته للوصول الى مجموعة من القضايا والتعميمات النظرية العامة .

فقد نشأ ماكس فيبر من ناحية فى ظل الفلسفة المثالية وتعرض لتأثير أفكارها . فأخذ عنها تأكيده على الأفكار والقيم والثقافة عموما باعتبارها المتغيرات المؤثرة فى الواقع الاجتماعى ، وتحت تأثيرها كذلك أكد ان ادراك الجوهر أو المعنى هو المدخل الحقيقى لتحديد طبيعة الواقعة . وهو قد تعرض لتأثير الفلسفة الوجودية ، فأخذ عنها تأكيده على الانسان والارادة الانسانية وفاعليتها فى تأسيس الواقع الاجتماعى وتحديد طبيعته . وهو قد أكد – تحت تأثير الوضعية – على العلاقات السببية بين الظواهر الاجتماعية ، وأيضا على ضرورة الوصول الى القوانين التى تحكم اطراد هذه الظواهر فى استقرارها وتغيرها .

على خلاف ذلك تفاعل ماكس فيبر مع النظرية الماركسية حول طبيعة المتغيرات الحاكمة للواقع الاجتماعى ، وأيضا حول طبيعة النظام الرأسمالى . كذلك تعرض لكثير من القضايا التى تعرض لها إميل دوركيم ، كقضية الحتمية الاجتماعية ، وادراك الوقائع الاجتماعية من الخارج والتحيز القيمى ، وتشئ الحقيقة الاجتماعية .

وقد قدم ماكس فيبر وجهة نظر محددة بشأن مختلف القضايا التى أثارتها الاتجاهات النظرية التى حاورها أو تعرض لتأثيرها . بحيث طور فى النهاية موقفا نظرياً وان كانت له علاقته بهذه الاتجاهات النظرية إلا أنه امتلك استقلاله وطابعه الخاص .

أولا : ماكس فيبر ، هويته واهتماماته .

تميز الاطار النظرى لماكس فيبر بطبيعته الشاملة ، فقد كان ماكس فيبر من الطراز الذى يتناول بالتحليل فكرة بسيطة ، ويستنتج منها حتى أقصى استقطاباتها . وقد كان يتوقف فى تحليلاته عند مستوى الخطوط العامة الشاملة ، ناظرا بنوع من الازدراء الى التفاصيل الدقيقة التى قد تهتم بها أية دراسة واقعية . ومن ثم فغالبا ماننظر اليه كفيلسوف ومنظر ، كما يدعى

ناقدوه ، حيث كان يعمل دائما على - حد قولهم - على تطويع الحقائق حتى توافق فرضياته النظرية .

فى مواجهة ذلك نجد من يؤكد قدرة ماكس فيبر على صياغة أفكاره بطريقة واضحة للغاية ، وبخاصة حينما تتعلق بقضية خلافية . بل ان أى باحث يتعرض لقراءته سوف يدهش من حجم المادة التاريخية المفصلة ، تلك التى كان له القدرة على استيعابها ، وأيضا لتنوع المجالات الفكرية التى كان قادرا على تغطيتها . ذلك يؤكد ان ماكس فيبر كان يملك عقلية موسوعية من النادر أن نجد نصيرا لها فى العصر الحديث (١) .

ونستطيع أن نؤكد ان ماكس فيبر يعتبر بحق أكثر العلماء الاجتماعيين تأثيرا فى النصف الأول من القرن العشرين . حيث شكلت أفكاره نقطة بدء لكثير من علماء الاجتماع المعاصرين ، نذكر من بينهم كارل مانهايم K.Mannheim ، هانز سبير Hans Speir ، هانز جيرث Hans Gerth ، تالكوت بارسونز T.Parsons ، روبرت ميرتون R.K.Merton ، و سى . رايت ميلز C.Wright Mills ، وكثيرين غيرهم . بل ان كثيرا من القضايا التى مازالت الآن موضع تناول تعتبر استمرارية لبداية أسسها ماكس فيبر . من ذلك نظريته فى التدرج الاجتماعى ، ودراساته فى البيروقراطية والتنظيمات الاجتماعية الكبيرة ، كذا دراساته فى السلطة الشرعية وعلم الاجتماع القانونى ، والسياسى ، والدينى ، وعلم اجتماع الموسيقى (٢) .

وبرغم الاطار السياسى الذى عاش فيبر فى نطاقه ، حيث ولد الأب ليبرالى تبع الحزب الليبرالى القومى من حيث انتمائه السياسى (٣) ، فاننا نجد لديه ميلا نحو الاهتمام بالنواحى العلمية بدرجة تفوق اهتماماته السياسية . أما فيما يتعلق بتدرجه المهنى فنجد انه قد عين محاضرا للقانون بجامعة برلين أولا ، ثم أصبح استاذا للاقتصاد بجامعة فرايبرج Freiburg ثم استاذا لكرسى الاقتصاد بجامعة هيدلبرج Heidelberg حيث خلف الاقتصادى الشهير كينز Herl Knies . وفى عام ١٩٠٠ نجده قد عانى من انهيار عصبى استمر حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، حيث شفى منه ثم استمر فى مزاولة نشاطه المهنى (٤) .

ولقد أثرت ملامح الحياة هذه ، سواء مايتعلق بخلفيته السياسية أو بتفكير الموسوعى على طبيعة انتقائه لقضاياه موضع الاهتمام والدراسة . اذ يلاحظ تميز القضايا موضع اهتمامه بقدر من التنوع من حيث كونها ذات طابع سياسى أو علمى ، أو تقع على مستويات عينيه أو منهجية ، هذا بالاضافة الى انتماء هذه القضايا لنطاقات فكرية عديدة كفلسفة المعرفة

، والتاريخ الاقتصادى ، والتاريخ الدينى ، وعلم الاجتماع السياسى . وذلك الى جانب تميز هذه القضايا بكونها خلافية ، أو معضلة ، طرحتها النظرية السوسيولوجية دونما ان تطرح اجابات لها ، وقد كانت هذه هى مهمة فيبر فى كثير من الاحيان . ولتوضيح ذلك نعرض أمثلة لهذه القضايا

وتتعلق أول هذه القضايا بمكانة العلوم الانسانية – التى سميت أحيانا بالعلوم التاريخية ، وأحيانا أخرى بالعلوم الاجتماعية ، وأحيانا ثالثة بالعلوم العقلية أو العلوم الثقافية – بين العلوم – حيث شكلت هذه القضية موضعا خلافيا فى اطار مختلف النظم العقلية لهذه المرحلة . ففى الاقتصاد قام خلاف بين شمولر Schmoller ومنجر Menger . وفى نطاق التاريخ قام الخلاف بين لامبرشت Lamprecht ومير E.Meyer وفون بيلوف Von Belov وفوسلر Vossler . أما بين الفلاسفة فقد شارك كل من دلتاى Dilthey ، وفندلباند Windelband وركرت Rickert فى هذا الخلاف . خلاصة القول فيما يتعلق بهذه القضية أدرك فيبر ان الوضعية رأت ضرورة اتحاد هذه العلوم الطبيعية بينما رأت المثالية ضرورة ان تتمتع هذهذ العلوم بنوع من الاستقلال الخاص (٥) .

فى مواجهة هذه القضية حاول فيبر أن يصوغ تآلفا انتقائيا يحاول فى اطاره المزاوجة بين الكانتية والكانتية المحدثة من ناحية وبين المثالية والمثالية المحدثة من ناحية أخرى . بل اننا نجده بالتحديد يحاول ان يؤلف بين وجهتى نظر ركرت ودلتاى فى هذه الصدد . فبينما ذهب الأخير الى ضرورة الفصل الحاد بين العلوم الطبيعية والعلوم الثقافية ، وذلك ان التفكير الانسانى فى كل منهما له طبيعته ومنهجه . اذ تتناول العلوم الطبيعية الحقائق ، ومن ثم يتخذ تفكيرها طابع التفسير Explanation غير ان العلوم الثقافية تعالج المعانى ويتخذ تفكيرها طابع الفهم Understanding . وبينما يهدف التفسير الى تأسيس القوانين السببية ويقترب من موضوع بحثه من الخارج نجد ان الفهم يحاول وصل معنى بمعنى آخر يتعلق بذات الموضوع ، بل أننا نجده يستوعب موضوعه مباشرة من خلال الحدس . فى المقابل نجد ركرت – وهو الكانتى المحدث – يتخذ موقفا مختلفا فيما يتعلق بتصنيف العلوم . اذ نجده يؤكد ان مجال العالم هو تفسير الظواهر سواء تعلقت بالعالم الانسانى أو الطبيعى ، فالظواهر ظواهر والعلم علم . وهو يعتقد ان الخلاف ينبغى أن يكون بين التاريخ والعلم . ذلك ان العلم هو تحليل الطبيعة بالنظر الى القوانين السببية ، بينما التاريخ هو تحليل الطبيعة كنمط لاحداث مفردة ، وبينما تعتبر القو نين أكثر المفاهيم دقة فى العلم ، نجد ان تنوع القيم وفرديتها من أهم تصورات

التاريخ جوهرية (٦) . بالنظر الى هذين الموقفين نجد أن فيبر يتخذ موقفا انتقائيا فيه من المثالية وفيه من الوضعية . فعلم الاجتماع - لديه - من حيث منهجيته ومن حيث طبيعة ادراكه ، له ملامحه المحددة ومستوياته فى التجريد التى تؤكد اهتمامه بادراك العلاقات السببية بين الظواهر ، إلا أن هذا لا ينفى ان ادراك معنى الظاهرة يخلع عليها معنى انسانيا خاصا قد لا يتوفر لظواهر الطبيعة الأخرى .

أما القضية الخلافية الثانية التى واجهها ماكس فيبر فتتعلق بطبيعة الدور الذى ينبغى على عالم الاجتماع القيام به . فلقد رأت المثالية المحدثة ان العالم الذى نعيشه ينبغى أن يكون مجالات للنشاط والعمل ، بينما ترى الكانتية المحدثة ان العالم ليس إلا موضوعا للمعرفة ، الأولى تؤكد ان العلم هو السياسة وهو الفن أو النظرية القادرة على احداث تغييرات محددة فيه ، بينما ترى الثانية ان العلم ينبغى ان يحقق امكاناته التفسيرية محررا من أحكام القيمة ومن التفصيلات الشخصية (٧) . وبالنظر الى اهتمامات فيبر الشخصية ورغبته الدائمة فى ان يلعب دورا سياسيا أو يؤدى دور مستشار الأمير على مايذهب ريمون آرون ، وأيضا بالنظر الى اهتماماته العلمية نجده يهتم دائما بالشروط التى يمكن أن يكون بها العلم التاريخى أو السوسيولوجى موضوعيا ، هذا الى جانب الشروط التى يمكن أن يكون فيها الفعل السياسى ملائما (٨) .

ويؤكد ريمون آرون ان استكشاف فيبر الدؤوب لماهية النموذج المثالى للرجل السياسى ؟ والنموذج المثالى للعالم ؟ وكيف يمكن أن يكون الانسان استاذا وسياسيا فى ذات الوقت ، كان استكشافا شخصيا بقدر ماكان فلسفيا (٩) . ولقد انعكس هذا التأرجح فى موقفه ورؤيته لطبيعة السلوك الإجتماعى من حيث مجالاته الأساسية وضوابطه . اذ نجده يؤكد ان هناك مدخلين لادراك السلوك . الأول سياسى ، وفى اطاره نجده يحاول توضيح مايمكن ان يسمى بتناقض الشرعيات الحاكمة للسلوك ، أما المدخل الثانى فهو علمى حيث يحاول الباحث فى اطاره ادراك مختلف الاتجاهات الدينية ومدى تأثيرها على سلوك الانسان ، وبخاصة سلوكه الاقتصادى .

ويرجع ماكس فيبر تعدد مداخل ادراك الفعل الى عدم ادراك التناقض فى طبيعة الأخلاق الموجهة للسلوك . فى اطار ذلك نجده يفارق بين أخلاق المسئولية Morality of Re-sponsibility وأخلاق الاعتقاد Morality of Convictions احداهما تمثل امتدادا لفلسفة ميكيافيللى والثانية ترجع أصولها لكانت . أما الأولى - أخلاق المسئولية - فتتكون من تصور

الانسان لنفسه فى المجتمع وتخيله لأية نتائج مترتبة على أية قرارات قد يصدرها . من هنا نجده يحاول ان يعدل من نسيج الأحداث أو تتابعاتها ، بحيث انه قد ينجز عملا يساعد به تحقيق نتائج أو متتاليات معينة مرغوب فيها . ويؤكد فيبر ان الانسان فى هذا النطاق لايتورع عن خداع الآخرين لتحقيق غاية معينة تتعلق بالوجود الأساسى للجماعة ، وفى هذا الاطار غالبا ماكان يستخدم مثال الانسان الذى صاغه ميكيافيللى ، والذى قد يضحى بروحه من أجل انقاذ المدينة . ذلك يعنى ان هناك أخلاقيات عليا تتجاوز أخلاق الانسان العادى وهى تحكم فى العادة أعمال رجل الدولة . فأخلاق المسئولية تتميز بكونها تبحث عن الفاعلية ، أو الوسيلة الملائمة لتحقيق لهدف ، ويصبح ذلك هو المعيار الوحيد للموافقة عليها (١٠) . أما أخلاق الاعتقاد فتختلف عن أخلاق المسئولية فى أنها التى تدفع الفاعل للتصرف وفقا لمشاعره ومقتضيات ضميره : دونما اعتبار للمتتاليات الكامنة أو الصريحة ، قد يعارض الفرد الجماعة ، غير ان سلوكه هذا يظل جوهريا من حيث كونه يعبر عن ضميره وقناعاته الأساسية (١١) .

ويكشف تحليل الممايزة بين نمطى الأخلاق اللذين طرحهما فيبر كموجهات للفعل عن ثلاثة ملاحظات أساسية . الأولى أن أخلاق المسئولية تذكرنا الى حد كبير بأفكار روسو عن الارادة العامة باعتبار ان الحاكم يعبر عن ارادة عليا وأخلاقيات وقناعات قد تتجاوز قناعاته الفردية وضميره الخاص . غير أن ذلك يختلط ببعض الملامح العقلانية التى تميز الموقف النفعى ، حيث يتميز السلوك الاجتماعى والممارسات السياسية لديه بأخلاقيات ذات طابع فردى تكتسب الوسيلة فى اطارها مشروعيتها ليس من طابعها الأخلاقى ولكن من قدرتها على تحقيق الغاية . أما الملاحظة الثانية فتتمثل فى ان المقابلة بين أخلاق المسئولية وأخلاق الاعتقاد كموجهات للسلوك تعيد اثارة قضية موجودة فعلا تتعلق بمصدر السلوك والأخلاق الجمعية . هل الانسان بضميره الفردى هو الذى يخلق الجماعة كامتداد لأخلاقه الفردية ، أم ان الضمائر والأخلاقيات الفردية ماهى إلا انعكاس لأخلاق مجتمعية عليا ، سابقة عليها ، وهى التى تتولى خلقها . أما الملاحظة الثالثة فنزيد فى اطارها ريمون آرون حينما ينتقد الفصل بين أخلاق المسئولية وأخلاق الاعتقاد . مؤكدا ان أخلاق المسئولية غالبا ماتكون ملهمة بأخلاق الاعتقاد ، مادامت الأولى تهتم بالسلوك الذى يمتلك الفاعلية ، بينما تركز الثانية على النمط المثالى الذى يظل السلوك فى اطاره معقولا (١٢) .

وتعتبر قضية الضبط والنظام الاجتماعى المجال الثالث الذى يشكل اهتمام ماكس فيبر . فى اطار هذه القضية نجد وجهة النظر التى تؤكد على الانسان الاجتماعى كخالق للمجتمع ،

بينما تناقضها وجهة نظر أخرى تنطلق من متضمنات النظام الاجتماعى . حيث تنظر الى الانسان كنتيجة للمجتمع . ويؤكد فيبر أن الاهتمام بقضية الضبط يدفع الى الاهتمام بتأسيس علم اجتماع التفاعل الاجتماعى (فى مواجهة علم الاجتماع الذى يهتم بالنسق الاجتماعى) . وفى اطار علم اجتماع السلوك نجد ان الانسان وهو يتفاعل مع الآخرين فى محاولته السيطرة على السلوك فانه يفرض المعانى والتحديدات المتعلقة بالفعل على الموقف التى تضمه والآخرين . وبذلك فان تصور النسق الاجتماعى كنتيجة للتفاعل يتحدد بالنظر الى علاقات الضبط بين المشاركين فى اطاره (١٣) . من هنا تعتبر قضية الضبط ذات أهمية جوهرية بالنسبة لماكس فيبر ، ويتضح ذلك من اهتمامه الشامل بهذه القضية ، وخاصة حينما يتحدث عن البيروقراطية كظاهرة أو خاصية تسود بشكل شامل مختلف جوانب الحياة الحديثة (١٤) . ولأن ماكس فيبر كان يؤكد دائما على اعتبار النظام أو النسق الاجتماعى نتيجة للوجود الفردى الفاعل والمتفاعل ، فانه لكى يحافظ على هذا الوجود حياته وحيويته كان عليه أن يؤكد على قضية الضبط بشكل عام والبيروقراطية بوجه خاص ، وذلك باعتبارهما آليات تحافظ على تساوق مجموع الأفعال الفردية بحيث يخلق تداخلها وجودا مجتمعيا شاملا .

وتقع القضية الرابعة على المستوى المنهجى من تحليلاته . وتتعلق أساس بمدى موضوعية التعبير عن الحقيقة الواقعية . فى اطار ذلك نجد أن لفيبر عددا من التحفظات على كل من الموقف المثالى والوضعى فى هذا الصدد . غير أننا نجده يجنح نحو الموقف الوضعى حينما يؤكد ان الظواهر الاجتماعية هى كذلك مثلما تبدو لنا من وجهة نظر معينة ، أى أنها تعبر عن أحد جوانب الحقيقة فقط ، ذلك لأن الباحث فى ادراكه للحقيقة يخار عناصرها المكونة أو المؤكدة لرؤيته من بين عناصر كثيرة . وبذلك فاننا نجده يعلن وجهة نظر أكدها ميردال فيما بعد ، حينما أكد اننا يمكن ان نحقق قدرا عاليا من الموضوعية اذا نحن أعلنا بوضوح عن موقفنا النظرى والقيمى (١٥) . بالاضافة الى ذلك يؤكد فيبر ان الرؤية العلمية تظل ناقصة دائما مادامت الحقيقة الواقعية لانهائية . وفى هذا الصدد نجده يرفض الرأى القائل بان العلم قادر على ادراك جوهر الظواهر من أجل تنظيمها فى اطار نسق عام قد يعتبر انعكاسا أمينا للحقيقة ، لأن الأخيرة لانهائية بطبيعتها ، بل أنه من المستحيل وجود مفهوم قادر عى التعبير عن النوع الذى لانهاية له فيما يتعلق بالظواهر موضع الاهتمام . ومن ثم فمعرفتنا بالحقيقة تظل افتراضية دائما . ومن هنا يصبح النموذج المثالى ليس إلا أسلوبا أو مثالا للانتقاء على المؤرخ أو عالم الاجتماع أن يؤسسه وينجز بحثه وفقا له ، مادام كلاهما يقترب من الحقيقة من جهة نظر معينة تتحتم أساسا بواسطة توجيهاته القيمية (١٦) .

ماسبق يشكل مجموعة القضايا المنهجية موضع اهتمام السياق الفكرى فى الفترة التى عايشها ماكس فيبر ، ومن ثم فقد شكلت الإطار الذى تحققت فيه اسهاماته المنهجية التى يمكن تنظيمها فى اطار أربعة مجالات أساسية .

١ - دراساته المنهجية والفلسفية والنقدية ، وهى دراسات تتعلق أساسا بالعلوم الاجتماعية والتاريخ وعلم الإجتماع . وتتميز هذه الدراسات بأنها ذات طابع فلسفى ومعرفى تتناول مقولات مثل وضع الانسان فى التاريخ ، والعلاقات بين العلم والسلوك الانسانى . وهى مضمنه فى مؤلفاته المتعلقة بدراسات النظرية والعم .

٢ - انجازاته التاريخية ، كدراسة علاقات الانتاج فى زراعة العالم القديم ، والتاريخ الاقتصادى العام بالاضافة الى بعض الدراسات الخاصة ببعض القضايا الاقتصادية فى كل من أوربا عامة وألمانيا خاصة ، أو بالعلاقة بين الفلاحين البولنديين والطبقات الألمانية الحاكمة .

٣ - دراساته فى علم الاجتماع الدينى ، تلك التى بدأت بدراسته عن العلاقة بين الأخلاق البروتستنتية وروح الرأسمالية . ثم تحليلاته المقارنة للديانات الكبرى وطبيعة علاقة التأثير المتبادل بين الظروف الاقتصادية والمواقف الاجتماعية من ناحية وبين العقائد الدينية من ناحية أخرى .

٤ - دراساته فى اطار علم الاجتماع العام ، وتشكل دراساته الأساسية ، وقد قام بانجازها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، فى أعقاب شفائه ، وتقع فى اطار علم الاجتماع العام ويضمها مؤلفه الاقتصاد والمجتمع (١٧) .

ثانيا : ماكس فيبر والحوار مع المثالية والوضعية .

كان للأنساق الفلسفية التى شهدت مولد النظرية السوسيولوجية وطأتها على تفكير ماكس فيبر . حيث تعرض لذات القضايا التى كانت موضعا للحوار خلال هذه الفترة ، وهى تلك المتعلقة بتصنيف العلوم أو المنهج الملائم لادراك الحقيقة موضع الاهتمام ، ثم مدى اكتمال الألمام بهذه الحقيقة ، وماهى طبيعة المعرفة الناتجة عن ادراكنا لها . وفى حواره مع هذه الأنساق الفلسفية نجده يرفض المواقف الاستقطابية ذات الطابع الدوجماطيقى ، ومن ثم فقد أدرك أن جهده يقع أساسا فى النطاق المعتدل لأفكار كل من هذه الأنساق محاولا بذلك تأسيس منهج عقلانى ملائم لادراك الحقيقة الاجتماعية بكفاءة تشهد بتوفير الفهم المتكامل لأكثر

عناصرها جوهرية . وفى اطار عملية الحوار الانتقائى لأفكار كل من هذه الأنساق النظرية نجد أن له اتفاقاته واختلافاته على عدة مستويات .

وفيما يتعلق بالمثالية نجده يوافق منذ البداية على الفصل الحاد الذى أسسه كانت بين الحقائق والقيم . فالقيم ليست حقائق واقعية ملموسة ولا هى عناصر ترنسندنتالية ، ثم يذهب الى ان القيم عادة ماتخلقها قرارات بشرية تختلف نوعيا عن الاجراءات التى يدرك من خلالها العقل واقعه تأسيسا للصدق . قد يكون الصدق قيمة فى ذاته - على ماتذهب الكانتية المحدثة - غير انه ينبغى أن يكون واضحا ان ثمة خلافا أساسيا بين نظام العلم ونظام القيم ، فجوهر الأول يتمثل فى تعريض الحقائق للعقل والأسباب والبراهين ، بينما يكمن جوهر الثانى فى التأكيد على الاختيار الحر (١٨) . فليس ثمة انسان مفروض عليه ان يوافق على قيمة لايعتقد فيها عن طريق البرهنة . ولتوضيح ذلك نعرض لطبيعة حواره مع اثنين من مفكرى النزعة المثالية احدهما كارل يسبرز الذى ينتمى الى الجناح الفلسفى فى فرضياته الوجودية . أما الآخر وهو زيمل فينتمى الى المثالية السوسيولوجية . أما فيما يتعلق بعلاقته بكارل يسبرز Karl Juspers فنجده يأخذ عنه فكرة الفهم Comprehension التى أدت دورا هاما لديه . اذ يكمن جوهر علم النفس المرضى عند يسبرز فى الفصل بين التفسير والفهم . اذ يتفهم المحلل النفسى الحلم ، أو العلاقة بين خبرة معينة فى الطفولة وبين نشأة المرضى العصبى . ذلك يعنى - على مايذهب يسبرز - وجود نوع من الفهم المباشر للمعانى فى المستوى الأول للشعور . وبذلك يمكن القول بأن السلوكيات يمكن فهمها فى اطار سياقات معينة ، أما فيما وراء هذه السياقات فان العلاقة بين حالة المريض العقلية وبين حالته الفيزيقية أو النفسية لايمكن ادراكها . استنادا الى ذلك يؤسس فيبر أفكارً المتعلقة بتشكل السلوك الاجتماعى لنطاق شامل يمكن ادراك طبيعته بتفهم مناظر للتفهم الذى يحققه عالم النفس بالنسبة لسلوك الآخرين أو حالتهم العقلية . ومن هنا يحذر فيبر من ضرورة الوعى بعدم اختلاط التفهم السوسيولوجى بالتفهم السيكولوجى (١٩) .

أما علاقة ماكس فيبر بجورج زيمل فترجع الى اهتمام الأخير بصياغة بناءات صورية تماثل الى حد كبير من وجهة نظر البعض النماذج المثالية التى تولى ماكس فيبر صياغتها . ففى انتقال فيبر من الحديث عن الفعل والتفهم Verstehen الى الحديث عن العلاقات الاجتماعية . حدث انتقال مماثل فى منظور فيبر كان له دور جوهرى فى نسقه الفكرى . ذلك ان فيبر لم يعد يركز على مضمون الفعل البشرى كما يبدو لفهم الفاعل الذاتى . وانما أصبح

يتحدث عن أشكال الحياة الاجتماعية ، وهو مادفعه الى الساحة التى شكلت نطاق الاسهام الرئيسى لجورج زيمل . فى اطار ذلك نجد أن فيبر يرفض تصور زيمل لعلم الاجتماع الصورى كما يراد الأخير ، بل انه يرسخ اختلافه معه حينما يذهب الى ان فكرة التفهم ذاتها ترتكز على الاهتمام بمضمون السلوك وليس على بنائه الشكلى (٢٠) . ومع ذلك يذهب تنبرك Tenbruck فى مقال له عن المفاهيم الصورية لجورج زيمل الى القول بأن فيبر وزيمل يشتركان فى تأسيس مشروع نظرى متماثل ، فالأشكال الصورية عند زيمل شبيهة بالنماذج المثالية لدى فيبر . بل اننا أحيانا مانجد فيبر يتحدث عن الأشكال الاجتماعية منفصلة بذات أسلوب التحليل الذى يستخدمه زيمل . بل ان مجالات الاهتمام والتحليل التى اختارها فيبر هى ذاتها التى بدأ بها زيمل . ومما يبدو أن فيبر قد كشف عنه فى هذا الاتجاه يتصل بأن اتجاه الانسان وتوجيهه نحو الآخر يعتمد أساسا على الجوانب الصورية للسلوك وعلى العلاقة التى له بالآخر . ويؤكد فيبر انه بدون الاستغراق فى المفرد الواقعى التاريخى فان على عالم الاجتماع ان ينجز جهدا يتعلق بتأسيس النماذج Models الخاصة بالأشكال الاجتماعية ذات الصلة بالعلاقات الاجتماعية أو ببناء الجماعة (٢١) . غير انه برغم ان تأسيس النماذج المثالية يتم بالنظر الى انتقاء عدد محدود من عناصر الكلية موضع البحث فانه ليس من الضرورى ان تكون هذه العناصر من حيث انتقاؤها أى تأسيسها فى بناء النموذج المثالى ذات طابع صورى ، بل أن من أهم مقاصد فيبر فى هذا الصدد ألا تكون النماذج المثالية ذات طابع صورى .

بالاضافة الى ذلك فان لفيبر اتفاقاته واختلافاته مع بعض الأفكار المثالية . ففيما يتعلق بتصنيف العلوم الذى صاغته المثالية نجد ان فيبر لايتفق معها فى اختلاف العلوم الطبيعية عن العلوم الثقافية باعتبار ان المنهج فى الأخيرة له طبيعته المباشرة بينما فى الأولى له طبيعته غير المباشرة . من هنا نجده يؤكد امكانية أن يكون للحدس دور فى كل من العلوم الطبيعية والثقافية على السواء . ومن ثم فالادراك المباشر فى العلوم الثقافية ليس أكثر منه فى العلوم الطبيعية . ثم يصعد خلافه على هذه الجبهة حينما يؤكد ان دور العلم يكتمل فى مجال المعطيات الثقافية حينما يتمكن من تأسيس الارتباطات السببية (٢٢) . ومع ذلك فهو يتفق مع المثالية فيما يتعلق بادراك المعنى كدور أساسى بالنسبة للعلوم الثقافية . فهدف العلوم الثقافية هو أن تدرك المعنى المتصل بادراك مضمون العلاقات . ثم يذهب الى ان علاقات المعنى هى تلك التى تكشفها بين الدوافع والتصرفات Acts أو بين الوسائل والغايات . وهى على هذا النحو تتضح فى سلوكنا ،

وان على علم الاجتماع التفسيرى أن يكشف عنها فى سلوك الآخرين كما يكشف عنها فى سلوكنا نحن (٢٣) . ويتأكد ارتباط فيبر بالموقف المثالى حينما يؤكد - متفقا فى ذلك مع دلتاى - ان معنى الواقعة لايتطابق مع القوانين التى تحكمها ، فالأولى تتعلق بالفرد بينما يرتبط الأخير ، الى حد كبير بالاطراد . ومن هنا فكلما كان القانون عاما ، كان أقل انطباقا (٢٤) . ثم يؤكد ان تفسير الأحداث أو الوقائع سوف يصبح كافيا من الناحية السببية ، طالما ان ثمة احتمالية فى دوام حدوثها بنفس الأسلوب ، الذى يحدده التعميم المؤسس من خلال التجربة (٢٥) .

تبقى مسألة هامة وأخيرة كان لفيبر مع المثالية فى اطارها اتفاق كبير ، اذ نجده يقف الى جانب المثالية فى تأكيدها على أن الموضوع الأساسى للعلوم الثقافية ينبغى أن يكون الروح الانسانية ، هذه الروح التى تخضع لعملية مستمرة من التطور والتفسير وهى العملية التى ينظر اليها المثاليون على أنها ذات طابع خلاق أساسا (٢٦) . وان كان هيجل قد جعل من الروح المطلقة أو العقل الشامل أو الله أساسا لهذا العالم ، تحكم حركته وثباته وتطوره نحو الاكتمال بحيث يتحقق كمال الانسان اذا جسدت الروح نفسها فى الواقع الانسانى . فاننا نجد ان ماكس فيبر قد انتقلت اليه هذه الفكرة بكامل ملامحها ، ففى دراسته لعلاقة البروتستنتية بنشأة الرأسمالية ، نجده يؤكد ان النظام الرأسمالى حينما يرتبط بالروح الرأسمالية تكون بازاء موقف رأسمالى متكامل . حيث تشكل الروح عاملا سببيا أساسيا فى تأسيس النظام الرأسمالى الحقيقى ، ومن ثم فالروح تجسد نفسها فيه ، وهى ليست انعكاسا لعناصره المادية (٢٧) .

وتتميز علاقة فيبر بالموضوعية بذات الملامح تقريبا ، فهو قد وافقها فى بعض قضاياها ورفض فيها ما يتنافى مع موقفه النظرى . فى اطار ذلك نجده يرفض تصور كونت لترتيب العلوم . بحيث أدى هذا الاعتقاد الى انكار كونت لمكانة علم النفس كعلم مستقل ، حيث اعتبره فرعا من البيلوجيا ، وذلك لأن كونت قد اعتقد أنه من الممكن أن يوجد علم واحد فقط للمجتمع فى حين ان العلوم الطبيعية كثيرة . بالنظر الى ذلك يذهب فيبر الى أنه من الممكن أن تكون هناك علوم كثيرة مادام هناك مداخل كثيرة لمشكلة البحث ، ومن ثم فليس لنا الحق فى الادعاء بأننا قد استنفذنا المداخل الممكنة نحو الحقيقة مشكلة البحث . ولذات السبب نجده ينظر بنوع من السخف الى محاولات بعض المفكرين اعطاء العلوم الانسانية أساسا مشتركا ، بارجاعها جميعها مثلا الى علم النفس اذ يقول أنه مادام لكل علم قضاياه الخاصة به ، فانه يكون

مستقلا ، وليس ثمة علم يمكن أن يلعب دور النموذج لعلم آخر . ومن ثم فمحاولة ان نجعل من علم النفس أساسا لعلم الاجتماع على أساس أن الأخير يواجه الظواهر النفسية فى بحثه ليس سوى نوع من الرياضة العقلية . ثم يتساءل : أليس لعلم الاجتماع علاقة بالظواهر السياسية والاقتصادية والطبيعية الجغرافية ؟ فملاذا لا نجعله يستند الى علم السياسية والاقتصاد والطب والجغرافيا ؟ فمكانة علم الاجتماع فى رأى فيبر تعتمد على مجموعة القضايا المحددة التى يحاول بحثها (٢٨) . حدث هذا الاختلاف برغم اتفاقه مع الوضعية من حيث اعتبارها العلوم الاجتماعية فى سلة واحدة مع العلوم الطبيعية (٢٩) . وان أكد على ضرورة تباين المنهج لتباين زاوية الاقتراب من المشكلة بالنسبة لكل علم على حدة .

بالاضافة الى ذلك نجد ان فيبر يختلف مع باريتو أحد مفكرى الاتجاه الوضعى فيما يتعلق بطبيعة القوى المسيرة للتاريخ ، اذ يعتقد ان حركة المجتمع تتأثر بمجموعة التناقضات الأساسية التى قد تتخلق فى اطاره ، كالتناقض بين واقع الانسان ومايستحقه ، بين انانية الفرد والحاجة الى التضحية من أجل الجماعة . ومن ثم فقد أنصب جهد باريتو على تأسيس تصنيف صادق ودائم لمختلف الرواسب هذه . وهو التصنيف الذى قارب أن يكون نظرية عن الطبيعة البشرية وصل اليها باريتو عن طريق التسليم بالتنوع اللانهائى للظواهر التاريخية . فى مواجهة ذلك نجد ان فيبر يؤكد أنه برغم ان فئات الرواسب هذه قد تتصل بالميول الدائمة للطبيعة البشرية إلا أن التأكيد عليها يقود عالم الاجتماع الى اغفال أو تجاهل ماهو أكثر أهمية فى مسار التاريخ ، ويوافق فيبر على أن كلا من الأساطير وبالمثل الفلسفة غير المنطقية ، بل أنها غالبا ماتتحدى قواعد المنطق وحكمة التجربة . ولذلك فعلى المؤرخ دائما أن يحاول ادراك المعانى التى خلعها البشر على وجودهم . ماهو أسلوب مواجهتهم لمشكلة الشر أو ماهى الهدنة التى أسسوها بين الانانية والتضحية بالذات . ذلك ان أنساق المعانى والقيم هذه ذات طبيعة تاريخية ، وهى متنوعة وهامة بسبب خصوصيتها ، وبعبارة أخرى بينما يؤكد باريتو على ماهو دائم نجد أن فيبر يحاول أن يفهم الانساق الاجتماعية والعقلية التي تتميز ملامحها بالتفرد . فقد كان كل مايهمه هو أن يؤكد على الدور المحدد للدين فى مجتمع معين ، وان يحدد بناء القيم المتبنى بواسطة مجتمع أو عصر معين (٣٠) . أما الخلاف الثانى مع باريتو فانه يتعلق بأنه بينما يصنف باريتو كل ما لايتفق مع العلم التجريبى فى اطار ماهو غير منطقى نجد ان فيبر يوضح أن ثمة أساليب فعالة لتنظيم الفكر والوجود ، ليست علمية غير أنها ذات معنى (٣١) .

خلاصة القول أنه نتيجة للرفض والموافقة لعناصر كل من الموضوعية والمثالية تأسس موقف فيبرى متميز فيما يتعلق بالقضايا موضع الحوار .

وتعتبر قضية ادراك معنى الواقعة أو البحث عن التعميم الناشئ عن الاطراد أول هذه القضايا . فهو يوافق مع المثالية ان المعانى والقيم يجب أو ينبغى أن تكون مادة البحث الأساسية فى علم الاجتماع . بينما هو فى ذات الوقت يرى مع الوضعية أن العلم علم ، أيا كانت طبيعة الظواهر موضع الاهتمام عقلية كانت أم اجتماعية أم فيزيقية . ومن ثم فهو يرفض الموقف المثالى لأنه لايعتقد ان عزل المعانى والأحداث الاجتماعية تضع علم الاجتماع فى فئة مختلفة عن فئة العلوم التى تعمل على تأسيس القوانين السببية . وهو يرفض عملية الفصل بين التاريخ وعلم الاجتماع ، بحيث يصبح على الأخير أن يصبح علما له طابعه الصورى الخالص . ومن هنا نجده يوافق على الموقف التقليدى لعلم الاجتماع كنظام عقلى له طابعه العلمى ، يتناول مادته فى التاريخ . وهو يعتقد ان المنهج الناشىء لصياغة النماذج يعتبر من أول الوسائل لزيادة التحديد المنهجى فى علم الاجتماع (٣٢) .

ويعتبر التأليف بين التفريد والتعميم المنهجى نتاجا لالتقاء الوضعية والمثالية على الأرض الفيبرية . اذ نجده يؤكد ان كلا المنهجين (التفريد ، والتعميم) لايفضل أى منهما الآخر . ومن ثم نجده يذهب الى أن المشكلة الأساسية لنظرية المعرفة فى نظره تتمثل فى طبيعة العلاقة بين القانون والتاريخ ، بين المفهوم والواقع . وأيا كانت طبيعة المنهج المستخدم ، فان هذا المنهج عادة ماينتقى من التنوع الهائل للحقيقة الامبيريقية مايلائم اهتمامه . بالنظر الى ذلك نجد ان المنهج التعميمى Generalized Method يلغى عن الواقع كل مظاهره الهامشية أو الفريدة عن طريق إرجاع الخلافات الكيفية الى كميات قابلة للقياس المحدد ، بحيث يصلح ذلك أساسا لتأسيس مسلمات عامة ومنطقية . فى مقابل ذلك نجد ان منهج التفريد Individualized Method يهمل العناصر الأساسية المكونة Generic للظاهرة ، مركزا اهتمامه الكامل على الملامح الخاصة والمميزة لها . بذلك نجد ان كلا المنهجين ينفصل بقدر ما عن الحقيقة بهدف توفير احتياجات الصياغة التصورية الخاصة به ، والتى بدونها تستحيل المعرفة العلمية عن طريقه - ثم يؤكد فيبر ان كليهما على هذا النحو له صدقه ، وملاءمته ويكمل كل منهما الآخر (٣٣) .

ويكشف تحليل المشروع النظرى لماكس فيبر عن تأليفات نظرية كثيرة على هذا النحو بين الفرضيات المثالية والوضعية المتناقضة ، مما دفع أنصار كل اتجاه الى الادعاء بانتماء الاسهامات النظرية لماكس فيبر الى معسكرهم . فبرغم انتقاد الوضعية له لمحاولته الاعتماد على بعض المفاهيم الميتافيزيقية التى لايمكن الموافقة عليها ، فان استخدامه لذات اللغة الوضعية كالحديث عن التفسيرات الكافية سببيا ، والعلاقات بين الظواهر الاجتماعية أدت الى التسليم به من قبل بعض رواد الوضعية على أنه أحد عمدها برغم اهتمامه الظاهرى بالتاريخ والبحث عن المعنى فى المفرد التاريخى . البرهنة على ذلك مايؤكده كل من بول لازار سفيلد Lazersfeld وأوبرشال Oberschall من أن فيبر قد سلم بالطبيعة الاحتمالية للمؤشرات وعبر عن ذلك من خلال مفاهيم سوسيولوجية حينما أكد بوضوح أنه بالنظر الى هذه الاعتبارات الاحتمالية فان ادراك معنى العلاقات الاجتماعية المتبادلة يصبح ممكنا ، وان ذلك قد يتوقف حينما لاتكون ثمة احتمالية فى وقوع سلوك اجتماعى موجه بمعنى محدد (٣٤) . بل انهم يؤكدون أيضا اتفاق فيبر مع دوركيم فى تحديد ماهو اجتماعى . فبينما نجده يبدأ بوجهة النظر الذاتية للانسان المشارك ، اذا به يستبدله بأخر يحدد ما هو عام ومنتشر فى مجتمع معين ، بينما هو فى ذات الوقت له وجوده المستقل عن تجلياته الفردية (٣٥) .

فى مواجهة ذلك نجد ذات الادعاء لدى رواد المثالية ، اذ يعتبرونه من معسكرهم ويستشهدون على ذلك بتركيزه على أهمية معنى الظواهر الاجتماعية بالنسبة لذات الانسان المشارك ، مما يجعل علم الاجتماع ذاته يرتبط بفينومينولوجيا حياة الجماعة اليومية . حيث يبرز ذلك أهمية علم الاجتماع الفينومينولوجى وعلم اجتماع المعرفة . غير أن تأكيدهم على الفينومينولوجيا المستندة الى المعنى الذاتى والمنفصل عن اجراءات الصدق العلمى تجعل هذا التفكير يفتقد أكثر العناصر أساسية من وجهة نظر ماكس فيبر . فهم قد فشلوا فى ادراك ان فيبر لم يهتم فقط بالمعنى الذاتى للانسان فيما يتعلق بالموقف ، ولكنه اهتم بمعنى الموقف بالنسبة لانسان مؤسس افتراضيا أيضا . هذا بالاضافة الى أنهم قد فشلوا أيضا فى ادراك أن فيبر لم يهتم فقط بتأثير المعنى وحده على السلوك الانسانى ، ولكنه اهتم بتأثير العلاقات الاجتماعية ذات المعنى على هذا السلوك أيضا (٣٦) .

ثالثا : فيبر وماركس ، والبدء بمنطلقات جديدة.

ليست صحيحة تلك القضية التى تحاول اختزال التنظير السوسيولوجى لماكس فيبر ، بأنه قد تأسس بكامله (من خلال المناقشة العميقة والمستمرة التى قادها فيبر مع شبح كارل ماركس) (٣٧) . غير ان الحقيقة أن فيبر قد تقابل مع ماركس على نفس الساحات التى تعرض لها الأخير ، وليس لمواجهة الفرضيات الماركسية ، ولكن لأن الفرضيات أو القضايا التى تعرض لها ماركس ، كانت قضايا موضع حوار واهتمام من قبل السياق الاجتماعى المحيط أو نسق التفكير العلمى . وجهة نظر هذه الدراسة تؤكد ان قضايا الحوار بين ماركس وماكس فيبر كانت مفروضة من الخارج ، أى من السياق المحيط ، أو نسق التفكير العلمى ، الذى حكم على كلا المفكرين أن يتعرض لذات الظواهر ، ومن ثم فتعرضُ كل منهما كان اقترابا علميا من ذات القضايا ، وربما من خلال مداخل متباينة ، وليس التعرض لذات الظواهر كموقف شخصى لأى منهما ضد الآخر .

ومن الثابت أن طبيعة الرأسمالية الحديثة وأصلها كانت الواقعة الأساسية التى جذبت انتباه كل منهما ، وبالنسبة لماكس فيبر نجد ان جهده قد انصب بشكل أساسى على هذه القضية ، بحيث تحدد جهده أساسا على فهم الطبيعة الخاصة للحضارة الغربية والتناقضات الواضحة التى لها مع الحضارات الشرقية . وفى هذا الصدد نجد أن فيبر لم يرفض كارل ماركس كما قد يدعى البعض ، حيث نجده قد وافق على المبادئ المنهجية الأكثر عمقا لكارل ماركس . حقيقة أن فيبر قد رفض بعض القضايا الماركسية ، إلا أن هذا الرفض انصب أساسا على توضيح بعض القضايا كعدم كفاءة بعض النتائج الثورية لماركس ، بالاضافة الى رفض فيبر لمسألة التفوق الأخلاقى والانسانى الذى يدعيه ماركس للاشتراكية اذا قورنت بالرأسمالية(٣٨) .

ويؤكد تالكوت بارسونز ان ثمة صلة جوهرية بين ماكس فيبر وكارل ماركس حيث شكل الأخير نقطة البداية لمختلف التناولات العلمية لماكس فيبر . ذلك أنه من الثابت علميا ان ماكس فيبر قد تأثر بالمدرسة التاريخية الألمانية ، حيث كان لكتابات ومناقشات ماركس المتعلقة بالرأسمالية والاشتراكية تأثيرها الفعال فى فترة تشكل أفكار ماكس فيبر (٣٩) . مما دفعه الى تركيز اهتمامه فى المرحلة التالية على ظواهر النظام الاقتصادى الحديث باعتبارها تشكل نسقا اجتماعيا اقتصاديا ، حيث نجد ان ماكس فيبر قد سبق كلا من زومبارت Sombart وكارل ماركس فى التأكيد على تفرد هذا النسق فى التاريخ ، حيث لم يوجد مثله فى أى زمان أو

مكان (٤٠) . فى اطار ذلك نجد ان ماكس فيبر يتفق مع ماركس فى كثير من المقولات الوضعية المتعلقة بالنظام الرأسمالى . يؤكد ذلك قول ريمون آرون ان التفكير الفيبرى ليس قلبا للمادية التاريخية ، بل انه ليس هناك تصور أكثر زيفا من ان نتخيل ان فيبر أسس مشروعا تناقض به تماما مع المشروع الماركسى ، يفسر فى اطاره الاقتصاد بالنظر الى الدين فى مقابل تفسير ماركس الدين بالنظر الى الاقتصاد (٤١) . غير أن ذلك لاينفى وجود خلاف بينهما ، ولكن مانود تأكيده فى هذا الصدد ان فيبر لم يؤسس نموذجه النظرى لمواجهة ماركس وانما هو قد نظر الى ذات الواقع من منطق متباين يتناقض مع المنطق الماركسى ، وهو منهج له تبريره ومشروعيته العلمية .

ويكشف تحليل المشروعات النظرية لكل من ماركس وماكس فيبر عن وجود اتفاقات كبيرة بينهما . فالنموذج المثالى ، الذى يمثل جوهر الابداع النظرى لماكس فيبر نجد ان ماركس قد قال به أيضا . حيث تعتبر القوانين والتأسيسات النظرية التى صاغها ماركس نماذج مفيدة للغاية (٤٢) . يؤكد ذلك مايذهب اليه ماكس فيبر نفسه أنه من الطبيعى أن نعتبر كل القوانين والصياغات التصورية لماركس – مادامت ذات طابع نظرى – نماذج مثالية بصورة محددة . حيث تتبدى قدرة وتفرد هذه النماذج المثالية ، بل وكفاءتها التوجيهية حينما تستخدم لدراسة الواقع بالنسبة لأى باحث قد يستخدم الفروض أو المفاهيم الماركسية (٤٣) .

ويمثل شمول النسق الرأسمالى وتفرده التاريخى نطاق الاتفاق الثانى بين كل من ماكس فيبر وكارل ماركس . اذ يؤكد فيبر أنه برغم وجود ملامح سوق المدينة أو الشركات أو النقابات ، وكل أنواع التباينات المشروعة بين القرية والمدينة فى كل مكان ، فان مفهوم المواطن لم يوجد خارج القارة الأوربية ، بل ان مفهوم البرجوازية لم يوجد خارج أوربا الحديثة ، ومن ثم لايمكن وجود البروليتاريا كطبقة خارج أوربا مادام ليس هناك تنظيم عقلانى للعمل الحر فى اطار نظام مستقر . ومن ثم فالصراعات الطبقية بين الطبقات الدائنة والمدينة ، بين الملاك ومن لا أرض لهم ، بين العبيد أو المستأجرين ، والاقطاع قد وجدت فى كل مكان ولكن بأشكال مختلفة . هذا فى حين ان الصراع الحديث بين أصحاب الصناعات الكبيرة من ناحية وبين العمال ذوى الأجر الحر Free Wage قد اختفت تماما خارج أوربا (٤٤) .

وتشكل العلاقات الاجتماعية كسياق للانسان ، اطارا آخر للاتفاق بينهما . فبينما نجد أن ماركس قد رفض تشيؤ العلاقات الاجتماعية لأنها تشكل وجودا خارجيا بالنسبة للانسان الفرد تتولى قهره ، فان فيبر كان يدرك العلاقات الاجتماعية على أنها توجيه سلوك الانسان

نحو الآخر ، ومن ثم فهى تشكل مسارات للسلوك يمكن ادراكها ذاتيا ، ومن ثم فهى أبعد ماتكون عن التشيؤ . حقيقة أن الآخر ، وهو الطرف المقابل للعلاقة قد يبدو خارجيا بالنسبة للأنا ، ولكنه يبقى كائنا لايسمو على ماهو فردى . ومن ثم نجد ان ماكس فيبر بالاضافة الى ذلك يتفق فى رفض التشيؤ الماركسى حينما يؤكد دائما أن نقطة البدء فى مشروعه النظرى ليست شيئا ما خارجا External على الانسان ولكنه النشاط الانسانى ذاته (٤٥) .

ويعتبر نظام الطائفة الهندية ظاهرة عينية كانت موضع اتفاق بينهما . ففيما يتعلق بهذا النظام يؤكد فيبر أنه قد كانت له آثاره على النمو الاقتصادى ، ليس لأن هذا النظام ، كما يتوقع المرء منذ البداية ، يفرض عوائق وتحريمات على التفاعل الاجتماعى ، ولكن لأن هذا النظام أصبح بدرجة واضحة تقليديا ولاعقلانيا من حيث آثاره . وتذهب كثير من الدراسات الى أنه تأثر فى تحليله لهذا النظام بدراسات كارل ماركس فى هذا الصدد ، الذى نظر الى المكانة الخاصة للحرفى فى القرية الهندية - من حيث اعتماده على الأجر العينى الثابت بدلا من اعتماده على الانتاج من أجل السوق - على أنها المسبب الرئيسى لاستقرار الشعوب الآسيوية . ولقد كان ماركس ، على مايذهب فيبر ، صادقا فى هذا الصدد (٤٦) .

ومما لاشك فيه ان نقاط الاختلاف كان لها وجودها البارز الى جانب نقاط الاتفاق . بداية نجده يختلف مع كارل ماركس فى اعتباره الصراع وليس التجانس هو العملية الأساسية التى يستند عليها التفاعل الاجتماعى فى المجتمع (٤٧) . بالاضافة الى ذلك نجد كثيرا من الاختلافات المنهجية ، يتضح ذلك من أن فيبر يطرح قضية الوضع الوجودى للانسان فى الكون . ثم يحاول من خلال ذلك اكشتف القواعد التى تنال اعتبازا من الانسان الذى ينجز سلوكا محددا . بالاضافة الى تحديد القوانين التى تحكم الحياة السياسية بشكل عام . ومن ثم نجده يتساءل فيما يتعلق بطبيعة المعنى الذى يخلعه الانسان على وجوده فى هذا العالم ، ماهى العلاقة بين أفكاه الدينية وأسلوب الحياة التى يعيشها ، ثم الاتجاهات التى تبناها نحو الاقتصاد والعلاقة التى أسسها مع السلطة . فى اطار ذلك نجد ان علم الاجتماع لدى فيبر ألهم بفلسفة لها تصور وجودى يستند الى رفض قضيتين : الأولى انه ليس هناك علم يستطيع أن يوضح لنا كيف ينبغى أن نعيش ولا كيف ننظم مجتمعنا . بالاضافة الى ذلك فليس هناك علم يمكن أن يوضح للانسانية ماهى طبيعة مستقبلها ، الرفض الأول موجه نحو دوركيم أما الثانى فموجه نحو كارل ماركس . بالنظر الى ذلك نجد ان ماكس فيبر يشير الى زيف الفلسفة الماركسية لأنها غير متلائمة مع طبيعة العلم ولا مع طبيعة الوجود الانسانى . ذلك لأن كل علم

تاريخى أو سوسيولوجى ماهو إلا نظرة جزئية ومن ثم فهو عاجز عن اعلامنا مقدما بطبيعة المستقبل ، لأن المستقبل لايتحدد قبلا . وحتى لو كانت بعض أحداث المستقبل محددة قبلا ، فان الانسان فى طبيعته الأساسية البسيطة ، سوف يكون لديه الحرية التى يستطيع أن يرفض بها هذه الحتمية الجزئية ، أو ان يتكيف معها بأى من الأساليب العديدة التى قد تتراءى لــه (٤٨) .

وهنا نلاحظ خلافا جوهريا أساسيا لماكس فيبر مع كارل ماركس . أولا أنه رفض أى تصور للمستقبل ومن ثم فهو يرفض حتميا أى تصور للمجتمع الشيوعى ، وهو الهدف الأساسى من المشروع الماركسى . وثانيا انه مثلما رفض فى الوضعية طابعها الجماعى من حيث اغفالها لفاعلية الفرد فى تشكيل المجتمع . فإنه يرفض الحتمية النسقية لدى كارل ماركس ، ومن ثم نجد ان فيبر يوفر للفرد حريته الكاملة فى مواجهة الحتمية الى يمتلكها النسق . فله اراديته فى الاختيار بين ان يكون سلوكه هادفا الى تغييرها أو ان يتجه الى التكيف معها . مايرفضه ماكس فيبر أيضا التأكيد على العوامل الاقتصادية أو الجوانب المادية للبناء الاجتماعى ، ومحوريتها فى قيادة التفاعل والتطور الاجتماعى ، هذا بالاضافة الى رفض التحتيم الأحادى Unilateral Determination للمجتمع من قبل أى من عناصره ، سواء كان هذا العنصر اقتصاديا أو سياسيا أو دينيا ، اذ يؤكد فيبر ان العلاقة السببية فى علم الاجتماع ذات طابع جزئى واحتمالى ، ومن ثم ينتفى أى طابع الزامى حتمى (٤٩) . وفى أعقاب الغائه الطابع الحتمى لأى من العوامل نجده يتقدم لفرض رؤيته الذاتية . فيؤكد أنه فيما يتعلق بمذهب المادية التاريخية الأكثر سذاجة ، التى تذكر أن الأفكار تتأسس كانعكاس للمواقف الاقتصادية ، فان تأكيدها لاينم عن موقف علمى موضوعى . حيث ان روح الرأسمالية كانت موجودة قبل تخلق النظام الرأسمالى (٥٠) . فى اطار ذلك نجده يرفض بشدة أية فكرة تذهب الى أن هذه الانساق الرشيدة للأفكار الدينية يمكن فهمها بالنظر الى شروط مادية معينة . بينما هى فى الحقيقة نتاج للروح المنبثقة الموضحة لمعنى العالم من زوايا مختلفة (٥١) . ثم يتجه بعد ذلك الى تفسير نشأة ظاهرة النبوة فيؤكد أنه يمكن – الى حد كبير – نسبتها الى المواقف الاجتماعية ، حيث تكون القيم التقليدية مهتزة والصراعات متفشية بحيث قد يشكل ذلك دافعاً لاتخاذ موقف ، ومن ثم فهو يرى ان الأنبياء لهم صلة كبيرة بالصراعات الاجتماعية (٥٢) . ذلك يعنى رفضه للحتمية الأحادية التى قد تعزو التفاعل الاجتماعى لأى من عناصره المكونة . حقيقة

أنه من الناحية الظاهرية يقدم بديلا متمثلا فى أولوية القيم الدينية ، إلا أن حقيقة الأمر تؤكد أنه يرفض هذا الاحلال الاطلاقى ، أو الحتمية لأى من العوامل . فالعلاقة لديه متنوعة ، متغيرة احتمالية وجزئية .

تبقى بعد ذلك مجموعة الخلافات العينة الأقل خطورة من الخلافات المنهجية . ويعتبر تقسيم العمل الاجتماعى أول قضية خلافية فى هذا الصدد . اذ نجد أن فيبر يتخذ موقفا مضادا للماركسية ، حيث نجده يؤكد ان البشر مؤهلون بدرجات متباينة من وجهة النظر الفيزيقية والأخلاقية والعقلية . ذلك ان هناك نوعا من اليانصيب Lottery فى بداية الوجود الانسانى . له طابعه الجينى أساسا ، حيث ان الجينات التى يحصل عليها أى منا تنتج عن ترابط مجموعة كبيرة من الاحتمالات ، اذ يمثل كل فرد منا ترابطا لعشرات وآلاف من الجينات . ومادام عدم المساواة موجودا منذ البداية ، فانه قد قام بشأنها اتجاهان . احدهما يميل لالغاء التباين الطبيعى من خلال جهد اجتماعى ، والثانى على العكس منه يحاول ان يكافئ كل شخص بالنظر الى قدرته المتباينة . ثم نجده يترك القضية كلية دون ان يفصل أمرا أو يطرح موقفا محددا ، حينما يؤكد أنه لايستطيع أن يفعل شيئا بشأن هذه القضية ، ومن ثم فكل انسان له أن يختار ألهه وشيطانه (٥٣) . وفى أعقاب تأكيده على التباين البيلوجى نجده يستمر حتى يؤكد على التباين الاجتماعى أيضا . حينما يعتبر تقسيم العمل والمهن فى المجتمع كنتيجة لتصور الألهى للأمور كما يذهب توماس الاكوينى Thomas Aquinas اذ تأسس تباين البشر الى طبقات ومهن من خلال تطور تاريخى أصبح بالنسبة للوثر Luther نتيجة مباشرة لارادة الله . فالفرد عليه ان يثابر فى المكان والحدود التى حددها له الله كواجب دينى (٥٤) . واثر تأكيد فيبر على الأساس البيلوجى والثيولوجى للتباين الاجتماعى المتمثل فى تقسيم العمل الذى يسود النظام الرأسمالى نجده يقدم رؤيا مخالفة تماما لتلك التى طرحها ماركس فيما يتعلق بالمكونات الأساسية للنظام الرأسمالى .

اذ نجده منذ البداية يؤكد ان المكانة أو الوظيفة التى يؤديها الانسان فى الموقف الرأسمالى تعتبر نوعا من النداء الباطنى Calling . ذلك يعنى ان الموقف يتطلب نوعا من التضحية اللاشخصية لاعمال الوظيفة التى تفرض التزاماتها على القائم بها . بحيث تعمل العملية الاجتماعية فى الموقف نحو ملاءمة أعمال الانسان بحيث تصبح أى من أنماط سلوكه وعلاقاته بالآخرين مضبوطة بدقة بواسطة هدف الكل الذى يعمل الجميع لتحقيقه (٥٥) . فالرأسمالى مثلا لم ينم رأسماله كنتاج لفائض القيمة – على مايذهب ماركس – وانما نشأت

الشخصية الرأسمالية فى مدرسة الحياة الصعبة . فهى معتدلة ومضحية فى ذات الوقت من أجل عملها ، وهى ذات طابع برجوزاى من حيث آرائها ومبادئها . ثم يوضح ماكس فيبر كيف نشأت الرأسمالية ، فيؤكد أنه بدلا من انتقال الفلاحين الى المدينة لبيع الغزل الى الموزعين من أجل بيعها للمستهلكين قام هؤلاء الموزعون بتغيير هوية الفلاحين الى صناع عن طريق تجميعهم بالمدينة ، وتأسس علاقات لهم بالسوق وبالمستهلكين بحيث تتجه السلع مباشرة الى اشباع حاجات الآخرين (٥٦) . ثم يؤكد ان الشخصية الرأسمالية تتميز بالتحرر من التقاليد ، والعمل الدؤوب ، والتقشف ، والاحساس بأن المال يعبر عن غريزة البقاء ذاتها (٥٧) . وأثناء تعرض فيبر لأخلاق المسئولية نجده يبرر للانسان امكانية أن يتخذ موقفا ميكيافيليا ، حينما يؤكد ان للقائد أن يخدع الجنود فى سبيل المصلح العامة العليا (٥٨) . وقياسا على ذلك فللرأسمالى ان يفعل مايريد مادام يعمل على تراكم رأس المال وهو هدف يعتبر تعبيرا عن ارادة الله فى أرضه كما تذهب الكالفنية . ثم يصل الى قمة البرهنة حينما يبرر استغلال الرأسمالى للعامل نظرا لأنه سوف يحصل على الأجر الذى يشبع حاجاته من خلال ساعات انتاج قليلة . ومن ثم فالرأسمالى يخفض الأجر حتى يعمل العامل الساعات الكثيرة التى تؤهله للحصول على المقابل الذى يشبع حاجاته (٥٩) . فى اطار ذلك نجد ان لدى ماكس فيبر تصورا للعامل – الآخر فى الموقف – ككائن محدود الحاجات ليست له أية ارادة فيما يتعلق بعملية تراكم رأس المال والعمل الدؤوب ، وهو ماتذهب اليه وتؤكده البروتستنتية وهو مايعنى تخلقا لنوع من التناقض فى مشروعه النظرى . أما فيما يتعلق بالعامل البروليتارى كآخر فى الموقف فانه يؤدى دوره أيضا بالنظر الى الزام القيم البروتستنتية له . فالعمل لم يعد ينظر اليه على أنه نوع من الدنس أو الشر كما هو الحال فى بعض الحضارات القديمة . ولكنه فى اطار النظام الرأسمالى أصبح يؤدى على أنه التزام أخلاقى إيجابى ، لابراز الأهداف الأخلاقية العليا للانسان . ومن ثم فالاتجاه الرأسمالى نحو العمل يمثل تلك الروح التى يطلق عليها فبلن †Veblen روح أو غريزة العمل . فالانسان الذى لاينتج ومع ذلك يتمتع بالصحة والعافية ، هو شخص يتنكر لالتزاماته الأخلاقية (٦٠) . وهنا أيضا نجد ان فيبر يبرز التبرير الثيولوجى لاستقلال قوة العمل تحت غطاء ان لدى الأخير التزاما أخلاقيا للعمل .

وحول المسألة اليهودية – وهى المسألة التى أهتم بها ماركس – نجد ان ثمة خلافا آخر . فبينما يعزى ماركس عزلة اليهود الى عوامل وظروف تكمن فى السياق الاجتماعى . وخاصة تلك المتعلقة بالأوضاع الاقتصادية والمادية ، نجد أن فيبر وفقا لمنظوره النظرى يؤكد ان عزلتهم وعدم اختلاطهم ينبثق من اطاعتهم لقيم ديانتهم (٦١) .

رابعا : فيبر ودوركيم ، نطاق الاختلاف والاتفاق .

المؤكد ان أفكار دوركيم احتلت من الناحية التاريخية مكانة بارزة فى تطور النظرية السوسيولوجية العامة . بحيث يتفق كثير من المفكرين على ان أفكاره قد لعبت دور هاما فى تأسيس الميلاد الحقيقى لنظرية علم الاجتماع كنظرية علمية ، وتحديد ملامحها التى تعيش بها حتى الآن . غير ان تحليل البناء النظرى لدوركيم يكشف عن عناصر وضعية ومثالية متضمنة به . ومن المنطقى ان تكون أفكار دوركيم موضعا لاهتمام فيبر ، أولا لمكانة دوركيم فى اطار نظرية علم الاجتماع ، وثانيا بالنظر الى طبيعة الاهتمام بمجموعة من القضايا التى شكلت اطارا اتفاقيا أو خلافيا من قبل كل منهما (٦٢) .

ونحن نواجه منذ البداية باختلاف طبيعة التفكير عند كل منهما . اذ نجد از فيبر كان بالأساس امتداد للمثالية ، وبشكل جوهرى نجد ان دوركيم كان امتداد للوضعية الكونتية . بالأضافة الى ذلك نجد ان دوركيم كان يمثل نموذج المنظر الذى تميز مشروعه النظرى بوضوحه القاطع وشموله وبساطة خطوطه الأساسية ومن ثم فاذا قلنا أن دوركيم كان منظرا منقطع النظير فان ذلك تم على حساب البعد الأمبيريقى لدراساته . يناظر ذلك اننا نجد ان مكس فيبر من نموذج مختلف . فبرغم اهتماماته النظرية ، نجد ان لديه رغبة شاملة فى جمع الكم الهائل من الحقائق التفصيلية والمتراكمة . وفى نقاط محددة من معالجته نجده يصر عى ضرورة وضوح خطوط بنائه النظرى بدرجة قد تتجاوز الحقائق الواقعية المفصلة (٦٣) . يضاف الى ذلك أنه برغم اختلاف التوجه الأساسى لكل منهما ، حيث استغرق فيبر فى قضايا الدينامية الاجتماعية Social Dynamics التى لم يهتم بها دوركيم كثيرا . وبينما اهتم فيبر أساسا بالفعل والنماذج المثالية للفعل نجد ان دوركيم اهتم أساسا بالمعرفة المتعلقة بالواقع . أما فيما يتعلق بالخطوط العامة لأطرهما التصورية فنجد انها غالبا ماكانت متطابقة ، ونذكر مثالين على ذلك . الأول يتعلق بالفصل بين الدوافع الأخلاقية ، وغير الأخلاقية للفعل أو السلوك وهو فصل يتم بالنظر الى العنصر المعيارى للفعل أو السلوك ، أما الثانى فيتعلق بالفصل بين نوعية المعايير الأخلاقية (المشروعية لدى فيبر أو السلطة الأخلاقية عند دوركيم) من ناحية وبين العنصر الأشمل الذى تعتبر هذه المعايير تجليا له (الكارزما عند فيبر ، وماهو مقدس عند دوركيم) (٦٤) .

ولتوضيح أبعاد الاتفاق والاختلاف بينهما سوف نبدأ بما هو منهجى أولا . اذ نجد أن فيبر يختلف مع دوركيم حول قدرة العلم على مساعدة البشر فى تحديد المجتمعات التى ينبغى

أن يعيشوا فيها ، ثم كيف ينظمونها ، ثم نجده أيضا يرفض المقولة الدوركيمية المتعلقة بتحقق الموضوعية والتى تؤكد ضرورة انفصال الباحث عن الحقيقة التى يدرسها ، مؤكدا ان ذلك قد يعجز الباحث عن فهمها (٦٥) . ويضرب مثالا على ذلك مؤكدا ان دراسة الدين على انه نسيج من الغيبيات قد يتضمن خطر سقوط الباحث وفشله فى تأسيس فهم عميق للحياة الدينية للبشر . فى اطار ذلك يؤكد فيبر ان على الباحث ان يكون لديه احساس بأهمية مايمارسه البشر من أجل أن يدركه بشل جوهرى ، غير أن عليه بعد ذلك ان يفصل نفسه عن اهتمامه الشخصى اذا أراد أن يؤسس صدقا لمسألة ذات طابع عاطفى(٦٦) .

ويشكل النموذج المثالى قضية خلافية أخرى على المستوى المنهجى ، فبينما نجد ان دوركيم يهتم بتأسيس النموذج المتوسط Average Type وهو الذى يختلف كثيرا عن المتوسط الاحصائى كما صاغه كتيليه . اذ نجده يؤسس النموذج المتوسط بالنظر الى كل الخصائص التى تسود لدى المفردات الواقعية ومن ثم يحتوى النموذج المتوسط على صفاتها الواقعية وان كان من الممكن ان تحتوى هذه المفردات على بعض صفاته فقط ، على خلاف ذلك نجد ان ماكس فيبر يرى النموذج المثالى ليس وصفا للواقع ولكنه يهدف الى توفير وسائل واضحة لوصف هذا الواقع والتعبير عنه (٦٧) . فالى جانب أنه ليس فرضا نظريا ، فانه ليس وصفا أمينا للواقع ، وهو أيضا ليس نموذجا لوصف ماينبغى ان يكون ، وانما يعتبر وسيلة تيسر ابراز مايعتبره الباحث خصائص أساسية فى الظاهرة موضوع الدراسة .

وتشكل مسألة الحتمية نطاقا خلافيا آخر بينهما . بالنظر الى ذلك نجد ان فيبر يرفض نوعين من الحتمية ارتضاهما دوركيم . الأول مايمكن ان نسميه بالحتمية المجتمعية ، حيث تتحدد خصائص مجتمع ما بخصائص المجتمع السابق عليه (٦٨) . أى أنه يرفض صياغة الحاضر بواسطة الماضى وهى فرضية وضعية أكد عليها كل من بورك وكونت ودوركيم. وتعتبر الحتمية الاجتماعية هى الحتمية الثانية التييرفضها فيبر عند دوركيم . حيث يرفض نشأة وتطور التفاعل الاجتماعى بالنظر الى بعض العناصر الاجتماعية ، التى تتمثل أساسا فى الثقافة والقيم والتجليات الجمعية عند دوركيم . فى مواجهة ذلك نجده يؤكد على التصور الارادى الذى يخلق فى اطاره البشر مجتمعهم ، ومن ثم نجده ينكر وجود نظام شامل للقيم له وطأته الملزمة على الأفراد (٦٩) على غرار مايذهب دوركيم .

وتشكل طبيعة النظرة الى الحقيقة الاجتماعية موضع خلاف آخر بين فيبر ودوركيم واذ يرفض الأول تشيؤ الحقيقة الذى افترضه دوركيم الذى يراها خارجة عن الوجود الفردى ، ومن

ثم فهى لاتفسر بالنظر الى الدوافع والأهداف الفردية ، لأنها ذات طابع جماعى يتجاوز الفرد ذاته ، بذلك يؤسس دوركيم مايسمى بالمنهجية الجماعية Methodological Collectivism . فى مواجهة ذلك نجد ان فيبر يؤسس مايسمى بالمنهجية الفردية Methodological Individualism التى تؤكد ان التفسيرات تصبح كافية اذا هى قامت على مستوى المعنى . غير ان ذلك لايعنى اغفال العلاقات السببية بين العناصر المكونة للسلوك أو الفعل ، والتى تجد منطلقاتها الأساسية فى دافعية الأفراد Actors Motivation (٧٠) .

ذلك يعنى انه بينما نقطة انطلاق السلوك عند دوركيم جمعية ، اذا هى فردية عند ماكس فيبر . وبينما هى متشيئة ندركها من خلال مؤشراتها واظهارتها الخارجية اذا بنا كى ندركها – من وجهة نظر ماكس فيبر – فان علينا ان نبحث عن المعنى المتضمن فى اطارها

يبقى بعد ذلك خلاف يتعلق بقضية التغير الاجتماعى . اذ نجد لدى فيبر اهتماما بالتغير كعنصر أساسى من عناصر التفاعل الاجتماعى يفوق مستوى اهتمام دوركيم بهذه القضية . ويتضح ذلك من نظرة كل منهما لهذه القضية من خلال علاقتها بالقيم الدينية . فبينما يؤكد دوركيم على دور القيم والمعايير فى تحريم المساس بالحالة النظامية الراهنة ، نجد فيبر يوضح من خلال نظريته عن النبوة ، وعملية الصياغة العقلانية للكارزما الدور الآخر للعنصر القيمى المتعلق بالقيم كوسيلة ارادية فى أحداث التغير الاجتماعى . وفى الحقيقة لا يعتبر ماكس فيبر مناقضا فى هذا الاطار لما يذهب اليه دوركيم ، وانما نجده يوسع الدور الذى فشل دوركيم فى تأسيسه للقيم . ويعزى نجاح فيبر فى ذلك الى منظوره المقارن ، واهتماماته بقضايا التغير الاجتماعى (٧١) . بيد ان ذلك لايعنى ان الموقف الفيبرى كان رفضا شاملا للموقف الدوركيمى اذ نلاحظ بينهما اتفاقات عديدة ، نذكر منها اتفاقهما حول بعض العناصر الأساسية المتعلقة بالواقع الاجتماعى والتفاعل الذى يتم فى اطاره . فهناك اتفاق بينهما على مواجهة الماركسية فيما تعلق بتأكيدها على التباين البيلوجى بين الأفراد بالنظر الى قدراتهم الأساسية والامكانات التى لديهم . فى هذا الاطار نجد ان دوركيم يؤكد على أنه ينبغى على تقسيم العمل الاجتماعى ان يراعى تباين الأفراد من حيث قدراتهم ، ومن ثم يوزعهم على الأعمال الملائمة لهم . وهو مايعنى ايمانه بالتفاوت الفطرى بين الأفراد المشكلين للمجتمع ، وتأسيس أساس بيلوجى للتباين الاجتماعى (٧٢) . نجد ان فيبر يؤكد أيضا على ذلك حينما يذهب الى أن البشر متباينون من حيث النواحى الأخلاقية والعقلية والفيزيقية ، وان النظام الاجتماعى الملائم هو

النظام الذى يدعم هذا التباين الطبيعى (٧٣) . بذلك يخلق فيبر تبريرا بيلوجيا وفيزيقيا للتباين الاجتماعى . أو فيما يتعلق بأنماط السلوك التى يأتيها البشر فى اطار التفاعل الاجتماعى .

وتشكل مشكلة النظام الاجتماعى نطاق التقاء بين فيبر ودوركيم . اذ يؤكد فيبر على ضرورة نظام معيارى له طابعه الايجابى ينبغى أن يتوفر له القبول الشرعى . هذا القبول من جانب الأفراد فى المجتمع ينبغى أن يتوفر له عنصران أساسيان ، الاتفاق Agreement والفرض Imposition ويعتبر العنصر الأول معبرا عن مصالح الأشخاص غير انه ليس كافيا لتأسيس النظام الاجتماعى . غير أنه لكى تتوفر للنظام مشروعيته ، فانه ينبغى ان يكون هناك الزام لتنفيذ متضمنات الاتفاق . ولعل ذلك يتصل الى حد كبير بتحليل دوركيم لعلاقات التعاقد ، حيث يعتبر عنصر المشروعية (الالزام) فى الاتفاق جزءا من تصور دوركيم (للعنصر اللاتعاقدى فى العقد) (٧٤) . وبذلك يصل فيبر لنفس النقطة التى وصل اليها دوركيم حينما يفسر القهر Constraint على أنه يمثل سلطة أخلاقية . وفضلا عن ذلك نجد أن فيبر يقترب من هذه المسألة من ذات الوجهة الدوركيمية حيث يعتقد ان - اذا ما تأسس النظام - الفرد يأتى سلوكه بالنظر الى نسق القواعد لتى تشكل الظروف أو الشروط الأساسية لهذا السلوك (٧٥) .

وبايجاز ، يكمن الخلاف الأساسى بين دوركيم وفيبر فيما يتعلق بالسلوك الاجتماعى حول نقطة أساسية . فبينما يرى الأخير ان السلوك الفردى يشكل النواة الأساسية التى تلتقى مع سلوك الآخر لتشكل التفاعل والنسق الاجتماعى ، ومن خلال التفاعل تتأسس ظواهر ونظم كثيرة تعمل جميعها على استمرار تخليق النسق .فاذا تخلق النسق فانه يشكل شروطا موقفية تتحكم فى تفاعله . بيد ان هذا التحكم لايكون قهريا يجبر السلوك الفردى على السير فى اطار مسارات معينة . وانما هو يترك للفرد امكانية التغيير الارادى لهذه الشروط متى كان ذلك مطلبا يعبر عن اتفاق جماعى ، على خلاف ذلك نجد دوركيم الذى يؤكد بداية على تخليق النسق الاجتماعى من خلال التفاعل الذى يكسبه هوية جديدة تختلف عن هوية التفاعلات الفردية التى ساهمت فى تشكيله . غير ان الجديد فى هذا الصدد انه بمجرد تخلق النسق فانه يمارس وطأته وقهره على الأفراد . ومن هنا نجد ان دوركيم عجز عن تناول قضية التغير ، وهى القضية التى كان لفيبر اسهامه العبقرى فى اطارها .

خامسا : الواقع الاجتماعى وأحداثه المؤثرة .

نحاول فى اطار هذه الفقرة استعراض بعض أحداث السياق الاجتماعى المعاصر لماكس فيبر ، ومدى تأثيرها على تحليلاته النظرية فيما يتعلق بالتفاعل الاجتماعى وطبيعته الأساسية . وتكشف دراسة المشروع النظرى لماكس فيبر عن اهتمامه بثلاثة قضايا رئيسية . الأولى تتعلق بالأشكال البنائية للمجتمعات ، أما الثانية فتتعلق بالبيروقراطية كعملية وتنظيم أساسى يسود الواقع الاجتماعى لأوربا الحديثة . وتنصب القضية الثالثة أساسا على بناءات السلطة فى عصره . وبنظرة تركيبية الى هذه القضايا الثلاث يتكشف لنا انها تدور فى فلك لقضية الأساسية المتعلقة بالنظام الاجتماعى والسلوك الفردى فى اطاره من حيث اطاراته وحدوده .

أما فيما يتعلق بالقضية الأولى فنلاحظ ان معظهم أعمال ماكس فيبر التى كتبها طيلة حياته ماهى إلا أنعكاس لانتقال المجتمع الأوربى الغربى ، خلال شباب فيبر على ماذهب روبرت نسبت ، من المرحلة التقليدية الى مرحلة التحديث فى مجالات السياسية والاقتصاد والتعليم ، وكافة المجالات الأساسية الأخرى للنظام الاجتماعى (٧٦) . حيث حدث هذا الانتقال فى تاريخ المجتمع الأوربى بفاعلية عاملين أساسيين ، العامل الأول سياسى ، حيث تأثر فيبر ككل العلماء الآخرين من أمثال دوركيم ، ماركس ، توكفيل Tocqueville وكروبتكين Kropotkin وبورك Burke بالتغيرات التى عايشها والتى يمكن ارجاعها الى الثورة الفرنسية . حيث كان لهذه الواقعة العظيمة تأثيرها على عقل وتفكير القرن الثامن عشر . اذ أصبح العقل الأوربى يرى فى الثورة الفرنسية التأثير المفاجئ والقوى الذى يمكن أن يكون للبشر والأحداث على البناءات التقليدية فى الغرب ، ومن ثم الاصرار على استبدال هذه البناءات بأخرى يحاول الثوريون استنتاجها من خلال العقل ، وبذلك يكون لها طابعها العقلانى . أو استبدالها بأخرى لها طابعها الكارزمى ، التى يتمثل مصدرها فى الحضور الساحر للفرد القائد مثل نابليون (٧٧) . أما العامل الثانى لانهيار البناءات التقليدية فيتمثل فى الثورة الصناعية التى أدت لى تقطيع أواصر الروابط التقليدية للمجتمعات التى تأثرت بها . ومن ثم أدت الى انتقالها الى أوضاع اجتماعية جديدة . من حيث تقسيم العمل ، ونمط الانتاج السائد بها ، وأشكال العلاقات الاجتماعية ومن ثم البيروقراطية كعملية أساسية تؤدى دورا محوريا فى بناء هذه المجتمعات .

وتشكل البيروقراطية العملية التى تركز اهتمام فيبر بها نظرا لفاعليتها الواقعية . فقد لاحظ فيبر انتشار البناءات البيروقراطية فى مختلف مجالات الحياة الاجتماعية . مما جعله قلقا بشأن حرية الانسان فى مواجهة النظام الاجتماعى الذى يتسم بدرجة عالية من العقلانية والذى

تحتل البيروقراطية مكانة محورية فى اطاره اذ نجده يؤكد أنه من المثير للرعب ان نعتقد ان العالم سوف يصبح يوما ما ممتلئا بلا شئ سوى هذه التروس الصغيرة ، أو البشر الصغار المعلقين فى أعمال صغيرة والذين يناضلون من أجل وظائف أكبر . مثل هذا الشعور نحو البيروقراطية كفيل بأن يدفع الانسان الى الاحساس بالأسى . ويبدو ان ذات الأمر يقع فى المجال السياسى ، اذ يؤكد أنه نظرا لأن البشر يحتاجون النظام اراديا . ولاشئ غيره ، فانهم يصبحون جبناء ويصيبهم العصاب لو اهتز هذا النظام للحظة واحدة . ونصبح لا حول لنا ولا قوة ، اذا أصيب النظام بالانهيار . اذا حدث ذلك ، فاننا نجد أنفسنا محاصرين ، وتصبح المسألة الأساسية ليس كيف تدعم النظام ونعجل منه ، ولكن كيف نواجه هذه الآلية كى نبقى على نسبة من البشر احرارا من هذا الحصار الروحى ، بعيدين عن أسلوب الحياة البيروقراطى الذى يتميز بقدرة فائقة على التحكم والسيطرة (٧٨) .

واذا كانت البيروقراطية كما رآها فيبر ما هى إلا تنظيم وادارة وأسلوب عمل عقلانى ساد الحياة الأوربية الحديثة فيما بعد الثورة السياسية والصناعية . فاننا نجد ان فيبر لم يكن يهدف الى ادانتها أو تأكيد كراهيته لها ، ولكن كل ما فى الأمر أنه أراد أن يعبر عن خوفه على الحرية الانسانية فى ظل هذا التنظيم ، وهو ما انعكس على اهتمامه بالسلطة الكارزمية أحيانا وبقضايا التغير الاجتماعى أحيانا أخرى .

وتشكل بناءات السلطة ونماذجها القضية الثالثة التى أهتم بها فيبر من خلال ظواهر واقعه المحيط . حيث تشكل نماذج السلطة التقليدية والعقلانية والكارزمية المقولات الأساسية لعلم الاجتماع ماكس فيبر فيما يتعلق بالسلطة . كما انها تشكل الاستجابة الرئيسية لواقعه الثورة من قبل الفكر الأوربى خلال القرنى التاسع عشر والعشرين . ومافعله فيبر بشأنها ، كما يؤكد علماء الاجتماع ، أنه صاغها من خلال تنميط يساعده على دراسة أنساق السلطة ، فى اطار مختلف مجالات النظام الاجتماعى المتعددة عبر التاريخ الانسانى ، الغربى والشرقى على السواء (٧٩) . ولايعنى فصل فيبر لنماذج السلطة الثلاث أنها منفصلة على هذا النحو واقعيا ، وإنما الفصل لأغراض تحليليه أساساً . إذ يؤكد ان المجتمع الواحد يمكن أن يتمضن نماذج السلطة الثلاث هذه (٨٠) . ثم نجده يؤكد فى مواضع كثيرة ان السلطة الكارزمية ، تخضع عادة بعد تأسيسها للعملية الروتينية حيث تنتقل بعد فترة الى الشكل التقليدى أو العقلانى للسلطة .